المفاهيم النفسية الأساسية فى القرآن الكريم وخطورة الإصطلاح

للاستاذ الدكتور حسن الشرقاوى
رئيس قسم الفلسفة
كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

مقدمـــة

لاشك فى أن القضايا التى يدعو (المعهد العالى للفكر الإسلامى) لمناقشتها فى هذه الندوة ، قضايا على جانب كبير من الأهمية .. خاصة وأنها تأتى فى الوقت الذى انبهر فيه الكثيرون بالتقدم التكنولوجى فى العالم الغربى ، فاعتقد المستغربون أن التقدم فى مجالات العلوم المختلفة إنما يكون بتطبيق النظريات الغربية ، حتى فى العلوم الحياتية والسلوكية ، ولم ينتبهوا الى أن التقدم فى العلوم المسخرة شىء ، وأن المنهج فى العلوم الحياتية — كالاخلاق والتربية وعلم النفس — شىء آخر .. كما قال عز من قائل : « لكل جعلنا منك شرعة ومنهاجا »[1] .

ولما كان الإسلام هو منهجنا الذى جعله الله لنا ، فان الأساس الذى تهدف اليه شريعتنا فى تطبيقاتها على جميع الأنشطة الانسانية ، هو تحقيق الوسط العدل[2] ، سواء فى الفكر أو السلوك أو الأخلاق .. فقد أمرنا الله عز وجل باتباع صراطه المستقيم ، الذى هو الخير الفاضل والعدل ، فقال تعالى :

- وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط .. المائدة/٤٢
- وكذلك جعلناكم أمة وسطا .. البقرة/١٤٣
- ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط .. الاسراء/٣٩
- وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين .. الاعراف/٣١

ولا يقوم منهجنا الإسلامى على الفكر الذاتى واتباع هوى النفس ، وإنما يستمد من الهدى الربانى واتباع ما أمر به الحق تعالى فى كتابه العزيز وفى سنة نبيه . فهو منهج رأسى أفقى ، يقوم على الاستمداد من منابع الحكمة الإلهية ، وذلك هو الجانب الرأسى . ثم النظر الى حقائق الكون والنفس على ضوء الامداد الربانى

---

(١) سورة المائدة ، آية ٤٨

(٢) راجع : نحو منهج إسلامى ص ٣٨ وما بعدها

الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وذلك هو الجانب الأرقى من المنهج .

ومن هذا المنهج الإلهى ، تبرز قضيتنا اليوم ، حول تحديد المفاهيم الأساسية فى مجال النفس الانسانية .. لأن معالجة هذا الموضوع لا يمكن أن تخضع للمنهج الغربى ، الذى يهددها بالوقوع فى الاجتهاد الذاتى والتأويلات الفردية النابعة من الهوى والظن .. وأن الظن لا يغنى من الحق شيئا .

وتتضح المفاهيم النفسية الاساسية ، من خلال المنظور القرآنى لحقيقة النفس الانسانية .. وليس من خلال نظريات فرويد أو غيره والتى تقوم على فكرة الصراع وتكوين الشخصية فى السنوات الخمس الأولى من حياة الطفل[1] ، وليس من خلال فكرة اللاشعور التى جعل منها اليهود ضربة موجهة لعقل الانسان وارادته الواعية[2] ، وليس من خلال قدرية الحتمية النفسية التى جعلها علم النفس الغربى كميراث مفروض وقدر محتوم لا يستطيع الانسان منه خلاصا[3] . فقد اتضح أن علماء النفس الغربيين لا يدرسون النفس ، وإنما يدرسون السلوك النفسى فحسب ، ولهذا فان معارفهم حول حقيقة النفس الانسانية وأوصافها وخصائصها ، هى مجرد دراسة متواضعة للمظاهر النفسية تعتمد على التخمينات والاجتهادات الذاتية .. أما علم النفس الإسلامى ، فهو يستقى من كتاب الله ومن هدى النبوة ، وشتان بين نبع الحكمة الإلهى وبين شطحات الفكر الذاتى .. ففى حين يقول عز من قائل (ونفس وما سواها ، فالهمها فجورها وتقواها) يقول اصحاب مدرسة الشخصية والتحليل النفسى ، وعلى رأسهم فرويد أن القانون الذى يحكم دنيا النفس هو قانون الغاب ، الذى يقرر أنه اذا لم تتذئب أكلتك الذئاب[4] .

---

(١) د. محمود فريد : التوجه فى التحليل النفسى ، ترجمة د. سامى محمود على ص ١٥ ، ١٦

(٢) د. هنرى جوخين . التراث اليهودى للصهيونى ص ١٠ـ١٥

(٣) د. سيد غنيم : سيكولوجية الشخصية ص ٢٨ـ٤٣

(٤) د. حسن الشرقاوى : نحو علم نفسى إسلامى ، ص ٣٢

وفى الوقت الذى يلقى فيه علم النفس الغربى محنته الكبرى التى عبر عنها ايزنك Izink بقوله " ان معدل شفاء العصابيين ثابت فعليا ، سواء عولجت بأساليب العلاج النفسى المعروفة أو تركوا دون علاج " فى هذا الوقت هدانا الله لاستكشاف موضوعات علم النفس الإسلامى الذى يقوم على مفاهيم راسخة للنفس الانسانية ، وردت فى كتاب الله وفى أحاديث الرسول ﷺ فكانت المنهج الذى اتبعه الحكماء من أئمة هذه الأمة من أمثال الحكيم الترمذى والمحاسبى والامام الغزالى وغيرهم كثير ، فاتضح لنا أن علم النفس الإسلامى لا يكتفى فقط بعلاجات الاضطرابات النفسية ، بل هو أيضا (علم وقائى) يحول دون وقوع هذه الاضطرابات أصلا ، بما يشير اليه من تحقق الأمن النفسى بالرجوع الى صفاء الإيمان .. فكانت حصيلة هذه الدراسة ، كتابنا (نحو علم نفس اسلامى) الذى لقى قبولا واهتماما واسعين ، وتواترت بعده كتابات عدة فى هذا الميدان الرحب من ميادين الثقافة الاسلامية .

المفاهيم النفسية والاصطلاح :

يذهب بعض المفكرين الى انكار أهمية الاصطلاحات ، ويقولون عبارة مشهورة تتردد كثيرا فى كتاباتهم وأقوالهم ، تقول العبارة (لا مشاحة فى الاصطلاح) حتى كادت هذه المقولة تكون احدى مبادىء البحث العلمى .. لكننا من جانبنا نرفض هذا المعنى بشكل قاطع ، فالاصطلاح هو المرحلة الأخيرة لاستقرار دلالة معينة فى الاذهان ، وهذه الدلالة بدورها ترتبط بالكثير من المفاهيم المتداخلة مع الاصطلاح .. فاذا كان هذا الاصطلاح ينطوى على خلل معين فى التصورات ، انتقل هذا الخلل الى بقية المفاهيم .

ولذلك فقد أردنا طيلة السنوات الماضية ، أن نضع مجموعة من الاصطلاحات المرتبطة بالمفاهيم الأساسية فى الكتاب والسنة ، حتى نتقى الوقوع فى مخاطر الاصطلاح الغربية التى تلقفها بعض المستغربين من الفكر الغربى دون تمييز ، فكانت لهذه المصطلحات الغربية أثرها الكبير فى تضليل الفكر .

(١) ايزنك : الحقيقة والوهم فى علم النفس ، ترجمة عادل حنفى ص ١٥٨ .

ولما كان موضوعنا اليوم مرتبطا بالمفاهيم النفسية ، فسوف نقتصر على عرض بعض الاصطلاحات الخاصة بعلم النفس الإسلامى ، مع مقارنتها بالمصطلح الغربى .. حتى يتضح بذلك الفارق بين المفهومين :

١ــ الزاجر .. لا الضمير :

اصطلاح الضمير ، بشقيه النفسى والاخلاقى ، مأخوذ من كلمة Conscience وليس له أصل فى الشريعة الإسلامية .. وقد تسبب هذا المصطلح فى العديد من أخطاء البحث فى العلوم النفسية والتربوية ، لما ينطوى عليه من غموض[1] . ونظرا لهذا الخلط الكبير فى مفهوم هذا المصطلح الغامض (الضمير) فان كثيرا من المظالم ارتكبت باسمه ، فبعض البلدان تقتل غيرها بوحشية باسم الضمير الحر .. وبعض الناس يقيمون هذه المباريات الوحشية والعروض اللاانسانية ، تحت دعوى المخاطرة والمغامرة وضمير التحضر اللاواعى ولذلك فنحن نتسائل : اذا كان الضمير هو الأساس السليم للسلوك الانسانى ، فكيف ترتكب باسمه هذه الفظائع ؟ واذا كان الضمير كافيا ليعلم الانسان طريقه الصحيح ، فلم بعث الله بالانبياء مبشرين ومنذرين ؟ فاذا كان مصطلح (الضمير) غير صالح ليكون حكما عادلا يجعل من صاحبه بالضرورة أخلاقيا ، فلابد وأن ندعو الى مصطلح اسلامى بديل .. نستمده من تأمل آيات القرآن الكريم . وهذا المصطلح هو (الزاجر) فالزاجر كما ورد فى الآيات البينات ، قوة فى الانسان تحدو به الى مجانبة المعاصى ، وتبتعد به عن كل ما يخالف الفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها[2] . وفى قوله تعالى :

* والزاجرات زجرا .. الصافات/٢
* ولقد جاءهم من الانباء ما فيه مزدجر .. القمر/٤

فالزاجر واعظ فى القلب يهتف به للسير فى طريق الاستقامة ، ويرشده لسلوك سبيل الحق وينجو به من الأهواء والمعاصى .. ولهذا فنحن نرفض مصطلح الضمير

(١) راجع نحو منهج إسلامى ص ٣٠٥ وما بعدها
(٢) راجع معنى (الزاجر) فى كتابنا الفاظ الصوفية ومعانيها

بما يشتمل عليه من دلالات نفسية وخلقية غامضة ، ولما اقترن به من التباس وابتعاد عن الصدق والوضوح ، لنستخدم هذا المصطلح والمفهوم القرآني : الزاجر

٢ــ كظم الغيظ . لا الكبت :

يذهب علماء النفس الغربي وعلى رأسهم فرويد الى تقرير مفهوم للشخصية يقول بأن هذه الشخصية الانسانية عبارة عن تفاعل متبادل بين حاجات الفرد الداخلية (الغرائز) وبين العالم الخارجي (الموضوعات)[1] ، وخلال هذا التفاعل يقوم الفرد باختزان العديد من الخبرات عن طريق « الكبت » ، فيلقي بها في مستودع المكبوتات : اللاشعور . وبالرغم من أن النظريات الجديدة في علم النفس قد أغفلت تماما الجانب اللاشعوري ، ولم تعد تعترف به . فان مصطلح الكبت ظل مستخدما في أعمال العديد من المفكرين المستغربين مما أدى بهم الى الاعتقاد بأن الانسان مغلوب على أمره ، وأن الحتمية النفسية هي قدره المحتوم[2] .

أما المصطلح الاسلامي ، والمفهوم القرآني الذي نستبدل به مصطلح الكبت ، فهو الصبر وكظم الغيظ .. فقد جاء في الآيات الكريمة :

* واصبر حتى يحكم الله .. يونس/١٠٩
* ان الله مع الصابرين .. البقرة/١٥٣
* والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس .. آل عمران/١٣٤

وهناك العديد من الآيات القرآنية التي تشكل في مجموعها المفهوم الإسلامي للصبر وكظم الغيظ .. حيث تتحلى حقائق الصبر وقدرة الانسان عليه ، فالانسان قادر على الصبر وكظم الغيظ ، بالعزم ومخالفة النفس واتباع العقل والوسط العدل ، وحين يصبر الانسان ويكظم غيظه ، يكون قادرا على الغضب

---

(١) فرويد . موجز في التحليل النفسي ص ١٤

(٢) ك. هول . نظريات الشخصية ، ترجمة د. أحمد فرج ــ مراجعة د. عكاشة ، ص ٢٩ــ٣٤

والثورة والأذى ، لكنه فى موقف اختيار .. فيختار الافضل والاصلح ! فهنا يكون الفعل واقعا عن وعى الفرد وادراكه لثمرة هذا الفعل ، وليس الأمر ناشئا عن الحتمية النفسية التى يقررها علماء النفس الغريبون وعلى رأسهم فرويد . ان الصبر موقف علم وحال وعمل وجهاد للنفس ، وليس موقفا مرضيا أو عصبيا .

وأخيرا فان الصبر ليس موقفا سلبيا كالكبت ، فالصابر ليس مغلوبا على أمره ، وإنما هو صاحب موقف ايجابى يسمو على الأحداث ، ويرتفع عن الغرائز ، ويرضى بالقضاء ، ويدرك بالمعرفة الإيمانية حقيقة الابتلاء .

٣ــ الفطرة .. لا الحتمية :

ظهر مصطلح الحتمية بشكل واضح فى علوم الميكانيكا .. ثم انتقل الى العلوم الانسانية كالاخلاق ، والتاريخ ، وعلم النفس[٢] . وفى علم النفس الغربى ، يخضع السلوك الانسانى لقانون الحتمية الذى يحدد السلوك وفقا للتكوين الطفولى فى السنوات الخمس الأولى من حياة الانسان .. وانتشر هذا المصطلح !

واذا مضينا فى تأملاتنا للقانون الإلهى ، لنستضىء بالمعانى المناسبة[٣] والتعبيرات المتكاملة والالفاظ الصالحة ، وجدنا لفظ (الفطرة) كمصطلح ، بديل أفضل وأشمل من مصطلح (الحتمية) فهو أصلح فى التطبيق ، وأوضح فى التعرف على الحقائق ، اذ أن الفطرة موجودة فى الانسان كما هى الناموس الكونى ، فهى تعبير عن الوسط العدل والخير الفاضل .. يقول عز من قائل :

* فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها .. الروم ٣٠
* وما لى لا أعبد الذى فطرنى .. يس/٢٢
* قل أغير الله اتخذ وليا ، فاطر السموات والأرض .. الانعام/١٤ .

هذه الفطرة المشار اليها فى الآيات الكريمة ، تسمح بتجاوز مفهوم الحتمية

---

(١) نحو منهج إسلامى ، ص ٣٥٨
(٢) كارل بوبر عقم المذهب التاريخى ، ترجمه : عبد الحميد صبره ، ص ١٣٥
(٣) نحو منهج إسلامى ، ص ٣١٩

فيما يتعلق بالسلوك البشرى ، فهى لا تلتزم بقواعده التعسفية التى تجبر الانسان على سلوك معين ، بل هى تفتح الباب للالتجاء الى الله والسير على صراطه المستقيم ، فهو تعالى الذى يقبل التوبة عن عباده ، ويجعل منها ميلادا جديدا يجب ما قبله ، ليرجع الانسان بعدها الى الجادة والصلاح .. ولهذا كان مصطلح الفطرة كبديل لمصطلح الحتمية رجوع الى الحق ، وربط محكم بين علم النفس وبين الدين ، وطريقا لاثراء أبحاثنا وتقدمها فى طريق العلم والحكمة .

٤ــ الدفع .. لا الصراع :

يعرف فرويد الصراع بأنه : فقدان الشخص الثقة فى قدرته على رفع التناقضات بين القصور المؤلم وبين النفس ، مما ينشأ عنه صراع يؤدى الى محاولة استبعاد القصور المؤلم[1] .. ثم شاع استخدام مصطلح (الصراع النفسى) حتى انتقل الى علم الاجتماع والاخلاق والسياسة .. وأكد أصحاب مدرسة الشخصية بعد انتشار هذا المصطلح ، على أن الصراع النفسى هو المكون الاساسى لبناء شخصية الفرد[2] . لكننا من خلال قول عز من قائل :

* ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض .. البقرة/٢٥١

* ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا .. الحج/٤٠

نقول بأنه لا يوجد هناك صراع بالمعنى العلمى الحديث داخل النفس ، وإنما هناك ذلك (الدفع) الذى هو موقف اختيارى من الانسان ، فهناك دفع ودفع مقابل ، كما فى قول عز من قائل :

* ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم .. فصلت/٤

* ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون .. المؤمنون/٩٦

---

(١) د. عزت راجح : الامراض النفسية والعقلية ، دار المعارف ، ص ١٨١ ، ١٨٢ .

(٢) بارفيك ملامى : عقدة أوديب ، ترجمة جميل سعيد ، ص ١٦٥

فالدفع هو المصطلح العلمى الصالح للاستخدام ، فهو مرن بدرجة تسمح له بالانسحاب الى النفس والناس والمجتمع ، بحيث لا يحمل معنى التناقض الموجود فى مصطلح الصراع[٢] .

طـ٥ــ الرؤية .. لا أضغاث الاحلام :

أهتم علماء النفس العربيون بموضوع الاحلام ، حتى أن فرويد يعتبر الحلم هو الطريق الملكى لمعرفة النشاط اللاشعورى فى العقل الانسانى ، وانه لغز مصور كمعنى رمزى[٣] .. فالحلم هو نوع من المكبوتات تظهر كرغبة لم تشبع بعد ، وكنوع من الارضاء الخيالى للرائى[٤] .. ثم يذهب يونج الى أن الحلم هو تعويض عن الحياة اللاشعورية فى مقابل الحياة الشعورية التى يحياها الانسان .. ويذهب البعض الآخر الى أن الحلم هو خداع المرء لنفسه[١] .. وهكذا تمضى التأويلات الذاتية الى مالانهاية .

والحقيقة أن ما يبحث فيه هؤلاء العلماء ليس الا وهم شيطانى لا تفسير له ، كما ورد فى الحديث النبوى (الحلم من الشيطان) أما المصطلح الاسلامى الذى ينبغى لنا بحث آفاقه ، فهو : الرؤية .. فان علم النفس الاسلامى يفصل بين الرؤيا والاحلام فى حين يخلط بينهما علم النفس الحديث .

وقد ورد لفظ الرؤية والحلم فى الحديث الشريف (الرؤية من الله والحلم من الشيطان) كما وردت فى القرآن الكريم فى قول عز من قائل :

* يا أيها الملاء افتونى فى رؤياى .. يوسف/٤٣
* قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين .. يوسف/٤٤

فهناك اذن فرق شاسع بين الرؤية والحلم .. فهناك الرؤية الصادقة ، وهناك أضغاث الاحلام التى لا يعول عليها ، ويطلق على كليهما لفظ (منامات) وقد

(٢) حو علم نفسى سلامى ، نحو منهج سلامى
(٣) فرويد : تفسير الأحلام ، ترجمة مصطفى صفوان ، ص ١٣٩
(٤) ارنست جونز : التحليل النفسى ، ترجمة د. الشيخى ، ص ٥٣ .
(١) احمد فؤاد الاهوانى : النوم الاتى ص ٩٧ .

قسم الشيخ عبد الغني النابلسي هذه المنامات الى ثلاثة أقسام : البشرى ، رؤيا التحذير ، رؤيا أماني النفس[٢] .

ولما كان المجال يضيق هنا عن استعراض اقسام الرؤية وأشكالها وصلتها بالصحة النفسية ، على النحو الذي عرضنا له بشكل مفصل في كتابنا (نحو علم نفسي اسلامي) فاننا سنكتفي هنا بالاشارة الى أن « الرؤية » التي يمكن تعبيرها وفهمها ، تختلف تماما عن « الحلم » الذي حاول علم النفس الغربي دراسته ، فوقع فيما لا حصر له من الاوهام والظنون .

خاتمة :

بعد هذا الاستعراض السريع لبعض المصطلحات والمفاهيم القرآنية ، ومقارنتها بالمصطلحات السائدة .. ننتهي الى القول بأنه من الضلال والاضلال أن نتوهم أننا قادرين على اختراع منهج ومفاهيم من غيبيات مفترضة ، ونبتدع من خيالاتنا مصطلحات غير متحققة ، ونتواضع على أسس وقواعد ذاتية ، نحاول بها أن نفهم ونفسر ونتنبأ ونحكم على السلوك النفسي ، زاعمين أن ما ابتدعناه كفيل بالوصول الى الحق واليقين . ولقد هدانا الله الى تحديد العديد من المصطلحات المستمدة من الحقائق القرآنية ، فان كنا قد عرضنا فيما سبق لبعض هذه المصطلحات مما يرتبط ارتباطا وثيقا بموضوع ندوتنا اليوم ، فسوف نكتفي بالاشارة الى بعض المصطلحات الأخرى .. فنحن نقول (الاستقامة) في مقابل الموضوعية ، و (الهدى) في مقابل الخلق ، و (الحكماء) في مقابل الفلاسفة ، و (العبودية لله) في مقابل مصطلح الحرية ، والتفكر .. لا الفكر ، والتسخير .. لا التبوّ والتحكم ، والبصيرة .. لا الحدس .

وأخيرا .. فان كل ما نزعم من مصطلحات وقوانين نفسية بعيدة عن الهدى القرآني ، هو وهم واهم ، وظن الظانين .. وقد قال تعالى (ان يتبعون الا الظن ، وان الظن لا يغني من الحق شيئا) ولقد أوصانا الله باتباع حكمة الدين ،

---

(٢) عبد الغني النابلسي : تعطير الانام في تعبير المنام ص ٩ ـ ٨

وأوصانا ألا نتبع الاهواء ، وأن لا نطع من أغفل الله قلبه عن الرشد .. ولهذا كله ، فنحن نقول كلمة حق : لا يمكن لنا فهم حقائق النفس الانسانية الا بتصحيح المفاهيم الأساسية ، ووضع اصطلاحات مناسبة للمدلولات القرآنية ..

وبالله التوفيق .....

أ.د. حسن الشرقاوى
رئيس قسم الفلسفة ـ كلية الآداب
جامعة الاسكندرية

المراجـــع

١ ـــ ارنست جونز : التحليل النفسى ، ترجمة د. الشنطى .

٢ ـــ أحمد فؤاد الأهوانى : النوم والأحلام

٣ ـــ ايزنك : الحقيقة والوهم فى علم النفس ، ترجمة قدرى حنفى .

٤ ـــ باترينك ملاهى : عقدة أوديب ، ترجمة جميل سعيد .

٥ ـــ حسن الشرقاوى : التربية النفسية فى المنهج الاسلامى .

٦ ـــ حسن الشرقاوى : نحو علم نفس اسلامى .

٧ ـــ حسن الشرقاوى : نحو منهج اسلامى .

٨ ـــ حسن الشرقاوى : الشريعة والحقيقة .

٩ ـــ حسن الشرقاوى : الفاظ الصوفية ومعانيها .

١٠ـــ حسن الشرقاوى ض الطب النفسى النبوى .

١١ـــ فرويد : الموجز فى التحليل النفسى ، ترجمة د. سامى محمود على .
تفسير الاحلام ، ترجمة مصطفى صفوان .

١٢ـــ صبرى جرجس : التراث اليهودى الصهيونى فى الفكر الفرويدى

١٣ـــ سيد غنيم : سيكلوجية الشخصية .

١٤ـــ ك. هوك : نظريات الشخصية ، ترجمة د. احمد فرج .

١٥ـــ كارل بوبر : علم المذهب التاريخى ، ترجمة د. عبد الحميد صبره .

١٦ـــ عزت راجح : الأمراض النفسية والعقلية .

١٧ـــ عبد الغنى النابلسى : تعطير الانام فى تعبير المنام .